

القسم الثاني

دراسة مقارنة

obeikandi.com

القسم الثاني

دراسة مقارنة

تقديم :

تقصد بهذه الدراسة أن نلقى نظرة عامة على التاريخ والمؤرخين وحركة التأليف التاريخي في مصر في القرن التاسع عشر ، لنحدد بها أطوار الحركة وأبجهاها وتياراتها ، ولنتعرف على فنون التاريخ وألوانه التي كتب فيها المؤرخون المصريون في هذا القرن ، وعلى ثقافتهم المختلفة وأثر هذه الثقافات في كتاباتهم وفي منهجهم وأسلوبهم ، ولنوضح أخيراً أغراض هذه الحركة ومراميها وأهدافها ، ولنبين إلى أي حد أثرت في المجتمع المصري .

١ - بؤادر النهضة الثقافية التلقائية

في أواخر القرن الثامن عشر

والذي نلاحظه أن مصر بدأت فيها في أواخر القرن الثامن عشر بؤادر نهضة علمية ثقافية تلقائية ، أي أنها نبتت نباتاً داخلياً

في مصر ، ولم تكن متأثرة بأى مؤثر خارجي ، شرقي أو غربي ،
 يندت هذه النهضة واضحة في ظهور مجموعة من رجال الفكر
 المصريين لم تعرف مصر شبيها لهم في القرون الثلاثة السابقة ، ففي
 ميدان الدراسات الرياضية والفلكية ظهر الشيخ حسن الجبرتي ،
 وفي ميدان الشعر والنثر ظهر رجال كالشيخ محمد الشبراوي ،
 والشيخ حسن العطار - وقد وليا مشيخة الأزهر - والشيخ
 إسماعيل الخشاب . وفي ميدان الدراسات اللغوية والدينية ظهر
 السيد محمد المرتضى الزبيدي ، وفي التاريخ ظهر الشيخ عبد الرحمن
 الجبرتي ؛ وكان من الممكن أن تسير هذه النهضة في طريقها ،
 وتتطور تطوراً طبيعياً ، وأغلب الظن أن هذا التطور كان سيأخذ
 شكلاً بعضياً إحيائياً ، بمعنى أن هذه النهضة كانت ستعمل على
 بعث أجداد الماضي العلمية ونشر التراث القديم .

غير أن هذه النهضة التلقائية أصيبت بقطع أو انفصال وقتي
 عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، فقد أتى مع الحملة عدد من
 العلماء الفرنسيين ، وكان هؤلاء العلماء ، بل كانت الحملة كلها
 تحمل معها إلى مصر مظاهر نهضة علمية مختلفة عن مظاهر
 النهضة المصرية اختلافاً بيناً في كل شيء ، وزار نفر من العلماء
 المصريين المعهد الذي أنشأه العلماء الفرنسيون في القاهرة ، وزاروا
 المكتبة والطبعة ، وبهرهم ما رأوه ، وبدأوا يفكرون ويقارنون

بين ما في أيديهم من علم وما في أيدي هؤلاء الفرنسيين
من علم .

وجلت الحملة عن مصر ، وحدثت اضطرابات ، واستقر الأمر
لمحمد علي والياً على مصر ، وأدرك النظام الجديد أنه لا بد من النقل
عن الغرب إذا كانت مصر تريد نهضة حقيقية تسير بها العالم ،
وفتحت المدارس الجديدة ، وأرسلت البعثات إلى أوروبا ، ووقفت
حركة التأليف مؤقتاً لتبدأ حركة الترجمة ولتستمر طوال عصر
محمد علي .

٢٠ - تطور الدراسات التاريخية في مصر

في القرن التاسع عشر

يعني من تتبع هذا التطور أن نتعرف على موقف علم التاريخ
وأن نتبع حركة التأليف فيه ، وعندنا أن النهضة في كتابة التاريخ
التي بدأها الجبرتي كان يمكن أن تستمر وأن يظهر في المجتمع
المصري مؤرخون آخرون على نمطه ، كان من الممكن أن يُقبل
صديقه الجبرتي ؛ إسماعيل الخشاب وحسن المطار على كتابة
التاريخ ، فقد بدت ميول الخشاب التاريخية في المحاولة التي حاولها
وفي التاريخ الذي لم يتمه ولم يصلنا ، وبدت ميول المطار التاريخية
في نوع الكتب التي كان يقرأها ، وكانت في معظمها كتباً

تاريخية وجغرافية ، كما بدت واضحة كذلك في توجيهاته لتلاميذه ،
وأولهم رفاة رافع الطهطاوى .

وكان من الممكن أن يظهر في المجتمع المصرى مؤرخون
آخرون من تلاميذ المطار من أمثال : رفاة الطهطاوى ، ومحمد
عياد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسى ، وقد بدت لكل واحد منهم
ميول تاريخية واضحة ظهر أثرها في بعض ما كتبوا ، ظهر أثرها
عند رفاة في رحلته « تخلص الإبريز في تلخيص باريز » ، وفي
الكتب التاريخية الكثيرة التي ترجمها هو وتلاميذه في مدرسة
الألسن ؛ وظهر أثرها عند محمد عياد الطنطاوى^(١) في نوع الكتب
التي اختارها لتدريس الأدب في الأزهر ، وفي بعض الكتب
التاريخية التي ألفها أثناء إقامته في روسيا ؛ وظهر أثرها عند محمد
عمر التونسى^(٢) في رحلتيه اللتين وصف فيهما لأول مرة بعض
أقطار السودان ، وهما رحلة دارفور ، ورحلة ودأى .

غير أن مجيء الحملة الفرنسية وأتجاه مصر بعد ذلك إلى النقل
عن الغرب ، وحرارة الترجمة في عصر محمد على ، كل ذلك أوقف
حركة التأليف التاريخي التي بدأها الجبرتي ، ووجه الجهود كلها إلى

(١) و (٢) انظر : الشيال : دكتور برون والشيخان محمد عياد

الطنطاوى ومحمد عمر التونسى ؛ مجلة كلية الآداب بجامعة اسكندرية ،

الترجمة ، وكانت معظم الكتب التي ترجمت كتباً علمية وحرية لخدمة المؤسسات الحديثة في الجيش والمدارس والدواوين إلى أن فتحت مدرسة الألسن ، وبدأ رفاة يضع مشروعه لترجمة عدد من الكتب لتغطية تاريخ العالم .

وانتهى عصر محمد علي ورفاعة وتلاميذه غرق في حركة الترجمة ، وكان الأمل معقوداً عليهم أن يخطوا بعد قليل الخطوة التالية الطبيعية فيتركوا الترجمة إلى التأليف بعد أن قرأوا وفهموا وهضموا ، ولكن النكسة التي أصابت الحياة الثقافية بتولية عباس الأول أوقفت هذا التطور مؤقتاً ، حتى إذا كان عصر إسماعيل انطلق رفاة وتلاميذه يؤلفون ، وانضمت إليهم مجموعة جديدة من أعضاء البعثات ، هي مجموعة علي مبارك ورفاقه من خريجي الهندسة أو من المعنيين بالآثار .

وكانت ثقافة الفريق الأول ثقافة أزهرية إسلامية ، طعمت فيما بعد بالثقافة الفرنسية التي تلقاها بعضهم في باريس ، والتي تلقاها البعض الآخر في مدرسة الألسن ، أما رجال الفريق الثاني فقد كانت ثقافتهم الأولى ثقافة علمية هندسية فلكية أو أثرية ، ثم طعمت هذه الثقافة كذلك بالثقافة الفرنسية ، ولهذا نلاحظ أن أفراد هاتين المدرستين قد تأثروا في كتاباتهم التاريخية بهذين النوعين من الثقافة ، فهم يستخدمون المراجع العربية القديمة كما

يستخدمون المراجع الفرنسية الحديثة وهم يرجعون إلى الطبرى ، وابن عبد الحكم ، والمسعودى ، وابن خلدون ، والمقرئى ، والسيوطى ، كما يرجعون إلى فولتير ، وروسو ، ومونتسكيو ، وجيزو ، وكاترمير ؛ فمعظم المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر قد أفادوا من المزج بين الثقافتين، ومع هذا لم ينسوا وطنهم وتاريخه، بل كانت دراستهم فى أوربا حافظاً لهم على العناية بتاريخ بلادهم وإعادة كتابته من جديد على ضوء ما وصلت إليه البحوث التاريخية والأثرية فى عهدهم ، فهم عندما بدأوا يؤلفون لم يؤلفوا فى تاريخ أوربا والعالم ، وإنما ألفوا فى تاريخ مصر ، فزعيم المدرسة الأولى رفاعة بدأ بوضع كتاب متعدد الأجزاء فى تاريخ مصر من أقدم العصور إلى وقته ولكنه لم ينجز منه إلا جزئين اثنين ، وعلى مبارك زعيم المدرسة الثانية بدأ بتأليف كتابه فى خطط مصر .

٣ - التيارات والمؤثرات التى أثرت فى كتابة التاريخ

فى هذا القرن

١ - الحركات القومية :

ثم كانت الحركة الإصلاحية الوطنية فى أواخر عصر إسماعيل ، وتبعها الثورة العربية فى عهد توفيق ، وانتهت الثورة بالاحتلال البريطانى لمصر ، وكان الاحتلال مثيراً جديداً للحركة الوطنية التى

ترعها أول الأمر مصطفى كامل ؛ وكان لهذه الحركة الوطنية بشعبيتها أثر واضح في كتابة التاريخ في أواخر القرن التاسع عشر ، فاتجه الكتاب إلى معالجة شؤون مصر والتاريخ لهذه الحركة الوطنية ولأنفسهم ولمصر الحديثة وللأسرة العلوية الحاكمة ، وكانوا وهم ينظرون لأنفسهم ولوطنهم وتاريخه ينظرون في نفس الوقت إلى العالم الخارجي المحيط بهم والذي سبقهم في مدارج الحضارة ، وبوجه خاص إلى أوروبا التي تسيطر عليهم وعلى بلدان الشرق الأخرى ؛ ولهذا كانوا تارة يؤرخون لمصر وتارة يؤرخون للعالم ، فظهرت لهم في أواخر القرن التاسع عشر كتب في تاريخ مصر وأحداثها ، وكتب في تاريخ العالم مثل « البحر الزاخر » لمحمود فهمي ، و « الكافي » لشاروبيم .

ب - العناية بالآثار :

وصحب هذا كله العناية بالآثار والتنقيب عنها ودراستها منذ فجر هذا القرن ، وكان لهذه الدراسة أثرها في مؤلفات المصريين الذين كتبوا في التاريخ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

هذه هي التيارات أو المؤثرات العامة التي أثرت في حركة التأليف التاريخي في مصر في القرن التاسع عشر ولونها هذه الألوان .

وقد أثرت في تنشيط حركة التأليف التاريخي ونموها وتطورها مؤثرات كثيرة أخرى ظهرت في مصر في القرن التاسع عشر ولم تكن تعرفها من قبل .

ج - الاعتراف بالتاريخ كعلم وتربسه في المدارس :

من هذه المؤثرات اعتراف الدوائر الثقافية في مصر ولأول مرة بالتاريخ كعلم ، ووضع دروس خاصة به في المدارس ، وتعيين مدرسين لتدريسه وتأليف أو ترجمة الكتب لدراسته ، والفضل الأول في هذا يرجع إلى رفاة الطهطاوى ، وقد بدأ هذا في مدرسة الألسن ، ثم درس التاريخ بعد ذلك في المدارس التجهيزية ، ثم في مدرسة اللسان المصرى القديم ، ومدرسة دارالعلوم ، وأخيراً في مدرسة المعلمين العليا ، وكانت أولى بعثات أرسلت إلى أوروبا للتخصص في دراسة التاريخ من خريجي مدرسة المعلمين العليا ، ثم تلتها بعثات أخرى من خريجي الجامعة المصرية بعد إنشائها بجامعة حكومية في سنة ١٩٢٥ ، ومعظم هؤلاء البعثيين شغلوا كراسى أساتذة التاريخ في الجامعات المصرية بعد عودتهم ، وعلى أيديهم وأيدي تلاميذهم تطورت الدراسات التاريخية في مصر تطوراً أساسياً في المنهج والطريقة والأسلوب والموضوعات .

د - الطباعة :

وكان لظهور الطباعة وانتشار المطابع في مصر في هذا القرن أثر جد واضح في الدراسات التاريخية ، فقد عرفت مصر الطباعة في مفتح القرن التاسع عشر ، وكانت المطبعة العربية التي صحبتها الحملة الفرنسية معها هي أول مطبعة وجدت في مصر ، ثم خرجت المطبعة مع الحملة عند جلائها ، وبقيت مصر بلا مطبعة إلى أن أنشأ محمد علي مطبعة بولاق في حدود سنة ١٨٢٢ ، ثم أنشئت بعد ذلك مطابع أخرى كثيرة ملحقة بالوزارات والمدارس العليا ، وفي هذه المطابع طبعت الكتب التاريخية مترجمة ومؤلفة ، وكانت تطبع من كل كتاب في العادة ألف نسخة وخاصة الكتب التي كانت توزع على تلاميذ المدارس ، فإذا عرفنا أن الكتب التاريخية - وغير التاريخية - كانت تتداول قبل القرن التاسع عشر بطريق النسخ ، أدركنا الفرق الواضح بين الأثر الذي يتركه كتاب يقرؤه ألف - أو أكثر من ألف عن طريق التداول - ، وكتاب يقرؤه عشرة أو عشرون على أكثر تقدير .

هـ - الصحافة :

يضاف إلى هذا أثر الصحافة ، فقد عرفت مصر الصحافة لأول مرة في هذا القرن أيضا ، وكانت العناية في صحافة القرن التاسع عشر

بالمقالة أكثر من الأخبار ، وكان ينشر في الصحف والمجلات المصرية كثير من الفصول والكتب التاريخية— مترجمة ومؤلفة— فكتاب رفاعه « منتهى الإيجاز في سيرة ساكن-الحجاز » نشر أولاً على حلقات في مجلة روضة المدارس ، وكذلك كتاب « نبذة في التنظيمات السياسية المختصة بالضبطية عند العرب والفرس والترك » الذي ترجم عن الفرنسية^(١) ، نشر فصولاً في مجلة روضة المدارس .

وكتاب « حقائق الأخبار في أوصاف البحار » لعلى مبارك ، الذي نشر أول الأمر فصولاً في مجلة روضة المدارس ، ثم جمعت الفصول في كتاب مستقل .

وكتاب « حماة الإسلام » لمصطفى نجيب ، نشر كذلك فصولاً في جريدة اللواء ؛ وهناك أمثلة كثيرة أخرى لكتب وفصول تاريخية نشرت في صحف « وادي النيل » و « اللواء » و « المؤيد » ، وفي مجلات « روضة المدارس » و « المقتطف » و « الهلال » . . الخ .

(١) عنوان هذا البحث بالفرنسية هو :

“Behrnauer = Mémoire sur les Institutions de Police chez les Arabes, les Persans et les Turcs.”

وقد نشر أولاً في المجلة الأسبوعية

(Journ. As. 5. e serie, 1866, T. X. X V, P. 461-509 ; T. XVI, p. 114-190).

و - إحياء التراث التاريخي القديم :

و نتيجة لانتشار المطابع في مصر - حكومية وغير حكومية - بدأ المصريون يحسون حاجتهم للتعرف على تراثهم التاريخي القديم ، ويعملون على نشر هذا التراث وطبع كتبه ليحصل أكبر عدد ممكن منهم على نسخ من هذه الكتب ، وكان رفاة أيضاً هو صاحب الفضل الأول في إحياء هذا التراث العربي القديم ونشره ، فقد سعى حتى حصل على موافقة سعيد باشا وصدرت الأوامر - كما يقول على مبارك - « بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، وعم الانتفاع بها في الأزهر وغيره ، منها تفسير الفخر الرازي ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، والقامات الحريية ، وغير ذلك من الكتب التي كانت عديمة الوجود في ذلك الوقت » (١) .

ثم حاول نفس المحاولة بعده الشيخ محمد عبده ، ولكنه لم يلبجاً إلى معونة الحكومة ، وإنما أسس في سنة ١٩٠٠ ، جمعية سماها « جمعية إحياء العلوم العربية » (٢) ، وقد قامت هذه الجمعية

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية

(٢) انظر : آدمز : الإسلام والتجديد في مصر ، ص ٨٠ - ٨١ ؛

ورشيد رضا ، تاريخ الإمام ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، ج ١ ، ص ٧٥٣

وما بعدها ؛ عثمان أمين : رائد الفكر المصري محمد عبده ، ص ٢٨

بطبع عدد كبير من المخطوطات العربية القديمة في اللغة والفقه والأدب والتاريخ .

ثم أقبل نفر آخر من المصريين المشتغلين بالطباعة أو الصحافة أو الفكر بوجه عام على طبع كتب أخرى ، فطبعت في مصر في هذا القرن كتب كثير من المؤرخين القدامى مثل ابن الأثير وابن خلدون ، وأبو شامة ، وابن الجوزي ، وابن حجر ، وابن بطوطة ، وابن إياس ، وابن مماتي ، والبلاذري ، والمقريزي ، والسخاوي ، والسيوطي ، وابن دقاق ، والجبرتي ، وغيرهم . . .

وبدأ المصريون يقرأون هذه الكتب ويتعرفون على تاريخهم الذي نسوه ، وعرفوا أن لهم أجداداً تاريخية كثيرة في ميادين الحرب والثقافة والحضارة ، ونشأ لديهم نتيجة لهذا كله وعي تاريخي جديد كان ذا أثر فعال في تقوية الروح القومية .

ز - الجمعيات العلمية والتاريخية :

ومن العوامل القوية التي أثرت في نشر الوعي التاريخي والدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر ، ظهور الجمعيات العلمية ، وهذه أيضاً ظاهرة جديدة لم تعرفها مصر قبل هذا القرن ،

وقد كانت جهود هذه الجمعيات وأبحاثها ومطبوعاتها تعنى في معظمها بتاريخ مصر في مختلف العصور .

أول هذه الجمعيات أو المجمع العلمي الذى أنشأه نابليون عند مجيئه إلى مصر في سنة ١٧٥٨ ، وكان أعضاؤه من العلماء الفرنسيين الذين صحبوا الحملة ، وقد جمعت ثمرات بحوثهم في الكتاب الضخم القيم « تخطيط مصر Description de l'Egypte » ، وقد ألقى هذا المجمع عند جلاء الحملة عن مصر ، ولكنه أعيد ثانية في الإسكندرية سنة ١٥٨٩ في عهد محمد سعيد ، باسم l'Institut d'Egypte ثم لم يلبث أن نقل إلى القاهرة ، وكان أعضاؤه في هذه المرة نخبة من علماء المصريين ومن العلماء الأوربيين المقيمين في مصر ، وأنشأ المجمع له مجلة علمية ، كما كان ينشر مجلدات تذكارية سنوية Memoires ، وفي المجلة والمجلدات التذكارية نشرت عشرات الأبحاث والمقالات في التاريخ بوجه عام ، وتاريخ مصر بوجه خاص ، والمجمع لا زال موجوداً حتى الآن ، ومجلته تنشر بانتظام .

وفي عهد محمد على كون جماعة من المستشرقين والعلماء الأوربيين المقيمين في مصر جمعية أسموها « الجمعية المصرية ^(١) » .
"Société Egyptienne"

(١) انظر : Yacoub Artin Pacha : *Lettres du Dr. Perron, du Caire et Alexandrie, à m. Jules Mohl, à Paris. 1838-1854.*
 = Le Caire, 1911.

وقد تحدث عنها كثيراً الدكتور برون Dr. Perron في خطاباته إلى صديقه جول مول J. Mohl ، فذكر أنها أسست سنة ١٨٣٥ ، وكان غرضها الأول إنشاء مكتبة تضم أكثر عدد ممكن من الكتب ، وخاصة مايتحدث منها عن الشرق : تاريخه وجغرافيته وأدبه وعاداته .. الخ .. الخ

وقد تطورت أغراض الجمعية بعد نحو ست أو سبع سنوات من تأسيسها ، فأصبح من أغراضها طبع ونشر الكتب المتصلة بالشرق .

وقد انضم إلى عضوية الجمعية فيما بعد عدد من المصريين الذين تثقفوا ثقافة أوروبية ، غير أن الجمعية انتهى أمرها إلى الانحلال في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وفي سنة ١٨٧٤ ضمت مكتبتها إلى دار الكتب الخديوية (المصرية فيما بعد) تنفيذاً لأمر أعضائها الأخيرين : حكاكيان بك ، وكاني بك ، ومسيو توربورن M. Thurborn

وفي سنة ١٨٦٨ أنشأ رجال الفكر من المصريين جمعية مصرية خالصة سموها « جمعية المعارف »^(١) وهدفها نشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، وقد قامت هذه الجمعية بطبع

= و (جمال الدين الشيال : دكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي ؛ مجلة كلية الآداب بجامعة اسكندرية ، العدد الثاني ،

١٩٤٤ ، ص ١٧٩ - ٢٢١

(١) الرافعي ، عصر إسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٤٤٢

عدد كبير من المؤلفات العربية القديمة في التاريخ والفقہ والأدب ،
ومن الكتب التاريخية التي طبعتها : كتاب أسد الغابة في
معرفة الصحابة لابن الأثير ، والفتح الوهبي في شرح العتبي ،
والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ، وتاريخ ابن الوردي . الخ .
وفي عصر إسماعيل أيضاً أنشئت الجمعية الجغرافية الخديوية
في سنة ١٨٧٥ ، وأغراضها العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية
وتدوينها ونشرها ، ولهذه الجمعية مجلة قيمة جداً نشر فيها كثير
من المقالات عن الكشوف الجغرافية والأبحاث الأثرية والتاريخية
التي تمت في القرن التاسع عشر .

وفي مجلات هذه الجمعيات ومطبوعاتها كانت تنشر أبحاث
المشتغلين بالتاريخ من المصريين والأوربيين على السواء ، فإلى جانب
أبحاث كازانوفا ، وهرتس ، ومرهيت ، وبروكش وغيرهم كانت
تنشر أبحاث أخرى لمحمود الفلكي ، ويعقوب أرتين ، ومحمد
مختار ، وأحمد كمال ، وعلى بهجت .

٤ - صدى هذه المؤثرات في كتابة التاريخ

فالمدراس الجديدة ، والاعتراف بالتاريخ كعلم ، وتدريبه في
هذه المدارس ، والطباعة ، والصحافة ، والجمعيات الثقافية
والتاريخية ، وحرارة إحياء التراث العربي القديم ، والعناية بالآثار ،

والنهضة القومية ، كل هذه العوامل كان لها أثرها الواضح في ظهور الوعي التاريخي في مصر في القرن التاسع عشر ، فنشطت حركة التأليف التاريخي ، وألفت الكتب الكثيرة وتعددت ألوان البحث التاريخي ، فلم تعد الكتابة في التاريخ مقصورة على مصر والإسلام كما كانت من قبل ، بل لقد طرقت المؤرخون المصريون موضوعات لم تكن معروفة في المكتبة التاريخية في العصر الإسلامي ، وسنحاول أن نحدد فيما يلي الموضوعات التي تناولوها .

١ - تاريخ العالم :

من الموضوعات التي طرقتها مؤرخو مصر في هذا القرن لأول مرة تاريخ العالم ، وكانت الكتابة في هذا الموضوع تطوراً طبيعياً منذ تحطمت أسوار العزلة التي كانت تحيط بمصر في العصر العثماني ومنذ بدأت مصر تتصل بالعالم الخارجي ، فنحن لا نسمع أن مصرياً واحداً زار أوروبا في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، ولكننا نسمع أن عشرات المصريين أرسلوا في أوائل القرن التاسع عشر لتلقي العلوم الحديثة في دول أوروبا المختلفة : إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا ، ونسمع أن كثيرين من المصريين زاروا أوروبا في النصف الثاني من هذا القرن للسياحة والدراسة وزيارة المتاحف والمكتبات وحضور المؤتمرات والدعاية لقضية بلادهم ، ولقد درس هؤلاء المصريون

تاريخ العالم في مدارس أوروبا وجامعاتها ، وشاهدوا حركة التأليف التاريخي النشيطة في أوروبا في القرن التاسع عشر ، وقرأوا لمؤرخي أوروبا في هذا القرن ، فكان من الطبيعي أن يعنوا بهذا الفرع من فروع التاريخ ، لهذا نجد رفاة الطهطاوي يبدأ مع نفر من تلاميذه في مدرسة الألسن بترجمة عدد من الكتب الفرنسية لتغطية تاريخ العالم بعصوره المختلفة ، وكان أحد هذه الكتب وهو تاريخ شارل الخامس من تأليف مؤرخ من مؤرخي أوروبا في القرن الثامن عشر وهو روبرتسن ، وفي أواخر القرن التاسع عشر نجد مؤرخين آخرين يؤلفان في تاريخ العالم ، أحدهما قائد من قواد الثورة العرابية ، وهو محمود فهمي ، وقد وضع كتابه « البحر الزاخر » أثناء إقامته في منفاه في جزيرة سيلان ، وهو كتاب ضخيم في أربعة أجزاء ، أرخ فيه لكل بلاد العالم ، والثاني مؤرخ مصري قبطي هو ميخائيل شاروبيم^(١) ،

(١) ميخائيل شاروبيم (١٨٦١ - ١٩٢٠) ولد بالقاهرة بحارة السقاين ، وتلقى العلوم بمدرستها ، فتعلم اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية ، وفي الرابعة عشرة من عمره عين في قلم التحريرات الإفرنجية بوزارة المالية ، وتتنقل في وظائف كثيرة إلى أن عين في سنة ١٨٨٤ قاضيا بمحكمة المنصورة الأهلية ، ثم رئيسا لنيابة تلك المحكمة ، وفي سنة ١٨٩٩ عين في وزارة المالية ناظراً في إدارة أملاك الميرى الحرة ، وفي سنة ١٩٠٣ أحيل إلى المعاش فتنشغل لإتمام تاريخه الكبير الكافي ، المطبوع منه ٤ أجزاء ، =

وقد وضع كتاباً مماثلاً أسماه « السكافي في التاريخ » أرخ فيه للعالم كذلك ، وكان اعتماد الرجلين عند تأليف كتابيهما على المراجع الأوروبية .

وهذا لون جديد من ألوان التاريخ ، لقد كتب المؤرخون المصريون والمسلمون من قبل في تاريخ العالم ، ولكن العالم في نظرهم كان هو العالم الإسلامي ، فهم لم يحاولوا أن يكتبوا في تواريخهم العالمية عن الشعوب التي كانت تسكن خارج عالمهم الإسلامي ، فيما عدا شذرات قليلة عن الشعوب المتاخمة للعالم الإسلامي كالمنود أو الترك أو البيزنطيين .

أما شعوب أوروبا بالذات فقد كان رأى المؤرخين المسلمين فيهم

= وبقى الجزء الخامس مسودة ، ولم ينشره أولاده ، وكان شاروبيم من سرة الأقباط وأعيانهم ورئيساً لجمعية التوفيق القبطية .

وقد اعتزناه من مؤرخى القرن التاسع عشر لأنه ألف كتابه في هذا القرن ، وطبعت أجزاءه الأربعة في السنوات الأخيرة منه (١٩٠٠ - ٨٩٨) والجزء الأول يتضمن تاريخ مصر في العصور القديمة وينتهى بفتح العرب لمصر . والجزء الثانى فيه تاريخ لمصر في العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ، والجزء الثالث يؤرخ للدولة العثمانية ولمصر في عهدهما ، وينتهى عند تولية محمد على حكم مصر .

وفي الجزء الرابع يؤرخ لمصر منذ عصر محمد على إلى آخر عهد توفيق ؛ هذا وقد نشر شاروبيم مخطوطة قديمة عنوانها « التليد في مذهب أهل التوحيد . لمؤلفه حمزة بن على وزير الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وطبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩١٣ .

رأياً سيئاً وكانت عنايتهم بهم ضئيلة ، فقد كانوا يعتقدون أنهم يعيشون في عالم من الجهل والتأخر في مكان قصي عنهم لا يخشى خطره على الإسلام ذات الحضارة المزدهرة ، المشرقة ، وليس عندهم من المعارف ما يقدمونه لهم^(١) ؛ ينعكس هذا الرأي واضحاً في أقوال مؤرخي العرب وجغرافيتهم في العصور الوسطى ، يقول السعودي — أحد جغرافيين القرن الرابع (العاشر الميلادي) — : « وأما أهل الربع الشمالي وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم .. فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة ، وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، قفل مزاج الحرارة فيهم ، فعظمت أجسامهم ، وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم ، وتبدلت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم .. ولم يكن في مذاهبهم متانة .. ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهايمية » .

ويعدّ دقّاض من طليطلة (وهو ابن صاعد الأندلسي) في القرن الخامس (١١ م) في كتابه «طبقات الأمم» الأمم التي عنيت بالعلم وهي : «أمم الهند والفرس والسكّديانيون والبرانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب» ، ويضيف إلى ذلك أن «أنسب الأمم الأخرى (التي لم تكن بالعلوم) هي الصين والترك» ، أما الأمم الباقية

(1) Bernard Lewis : *The Arabs in History*. p.p. 164-165.

والترجمة العربية لهذا الكتاب بعنوان «العرب في التاريخ» ق'م بها نبيه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

فكانوا موضع ازدرائه ، ويصفهم بأنهم : « أشبه بالبهائم منهم بالناس .. وأن من كان منهم موغلا في بلاد الشمال عظمت أبدانهم وابتضت ألوانهم ، وانسدلت شعورهم ، فعدموا بها دقة الأفهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة .. »

وقد تكون هذه الأقوال صحيحة إلى حد ما عند ما كانت أوروبا تعيش في العصور الوسطى الأولى ، ولكن مع بدء القرن السادس عشر تغير الموقف تغيراً تاماً ، فبدأت مصر وبلاد الشرق الأدنى الإسلامية تعيش في عزلة غريبة ، وفي ظلمة أشبه بظلمة العصور الوسطى الأوروبية ، في حين أن دول غرب أوروبا بدأت تقفز بعد عصر النهضة إلى الأمام وتخطو في طريق التقدم العلمى والحربى والاقتصادى خطوات واسعة ، ولهذا أتجهت أنظار المصريين مع نهضتهم الجديدة في القرن التاسع عشر إلى أوروبا ودولها المختلفة يقتبسون من علومها وينتقون عن لغاتها ، ولهذا أتجه المؤرخون المصريون في هذا القرن كذلك إلى الكتابة عن تاريخ العالم بما فيه هذه الأجزاء التى لم يكونوا يعرفون شيئاً ألبتة عن تاريخها ، ولهذا كان ما كتبه المؤرخون المصريون في كتبهم المترجمة والمؤلفة في القرن التاسع عشر عن دول أوروبا وتاريخها هو أول ما كتب عنها فى اللغة العربية .

ب - تواريخ الدول المجاورة ذات الصلة بمصر :

وإلى جانب هذه التواريخ العالمية ، عنى عدد من المؤرخين المصريين في هذا القرن بوضع كتب مستقلة عن تاريخ بعض الدول المجاورة ذات الصلة بمصر ، فألف إسماعيل سرهنك كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار » للتاريخ للدول البحرية ومن بينها مصر ؛ وألف محمد فريد « تاريخ الدولة العلية » ، كما ألف مصطفى كامل كتابين أحدهما في « تاريخ المسألة الشرقية » والثاني عن اليابان ، وألف جورجى زيدان كتاباً في « تاريخ إنجلترا » .

وظهر في مصر في هذا القرن أربعة كتب عن السودان ، اثنان منها بقلم محمد عمر التونسي ، وهما رحلة دارفور ورحلة وداى ، والثالث بقلم نعم شقير ، والرابع بقلم إبراهيم فوزى .

كذلك حظى تاريخ العرب والإسلام بنصيب كبير من عناية المؤرخين المصريين ، فألف رفاعة كتابه في سيرة الرسول ، ووضع جورجى زيدان كتاب « العرب قبل الإسلام » وكتاب « تاريخ التمدن الإسلامى » وكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » .

وبعض هذه الموضوعات كما نرى يطرقها المؤرخون المصريون لأول مرة ، ويزودون المكتبة العربية بأول كتب كتبت في

تاريخ هذه الدول ، فلم يكن في المكتبة العربية قبل هذا كتب في تاريخ الدولة العثمانية أو المسألة الشرقية أو اليابان أو إنجلترا أو الدولة العثمانية أو السودان .

ح - المذكرات الشخصية :

ولون آخر من ألوان التأليف التاريخي التي كتب فيها المؤرخون المصريون لأول مرة في القرن التاسع عشر وهو كتابه المذكرات الشخصية .

وكان ظهور هذا الفن نتيجة لمعرفة المصريين للسياسة بمعناها الحديث ، واشتراكهم في أحداثها ، واضطلاعهم بمسئوليات الحكم أو قيادة الرأي العام لأول مرة ، ولهذا كان كتاب المذكرات جميعاً من هذا النوع من الرجال ، أي من رجال الحكم أو من قادة الفكر والرأي العام ، من أمثال عرابي ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، ومحمود فهمي .

د - تاريخ مصر العام :

وإلى جانب هذه الأنواع الجديدة من التأليف التاريخي كتب المصريون في أنواع أخرى كانت معروفة قبلهم وألفت فيها الكتب الكثيرة ، فكتب بعضهم في تاريخ مصر العام من أقدم العصور أو من الفتح الإسلامي إلى وقتهم ، ومن هذا النوع كتاب رفاة

الذى أراد أن يؤرخ فيه لمصر في كل العصور ، ولم ينجز منه-
 إلا جزئين ، بدأ الأول بالتأريخ لمصر في عهد الفراعنة وانتهى به-
 إلى الفتح العربى لمصر ، وخصص الثانى للسيرة النبوية ، ثم توفى
 قبل أن ينجز بقية الأجزاء ، ومن الممكن أن ندخل تاريخ الجبرتى
 فى هذا النوع فقد قدم لكتابه بمقدمة مختصرة فى تاريخ مصر
 منذ الفتح الإسلامى ثم فصل الكلام بعد ذلك عن تاريخها فى
 القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر ، ومن
 هذا النوع أيضاً الكتاب الذى أرخ فيه جورجى زيدان لمصر
 منذ الفتح الإسلامى إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وسماه
 « تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن » ،
 وهو فى جزئين .

• كنب المخطط وتواريخ المدن :

وتاريخ المخطط والمدن فن قديم من فنون التاريخ ابتدعه-
 المؤرخون المصريون وكتبوا فيه كثيراً فكان أول من كتب فيه
 أبو عمر الكندى وآخرهم تقي الدين المقرئى ، ولم يكن يخلو قرن
 من القرون من مؤرخ من مؤرخى المخطط ، فيما عدا قرون الحكم
 العثمانى الثلاثة ، وقد جدد هذا الفن التاريخى فى القرن التاسع عشر
 وبدأ بالكتابة فيه على مبارك فأخرج كتابه القيم « المخطط
 التوفيقية الجديدة » فى عشرين جزءاً ، أرخ فيه للقاهرة ومدن

مصر جميعاً واعتمد فيه على خطط المقريري ، ثم وصل بتاريخ هذه المدن إلى عصره ، أى إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وأفاد كثيراً من البحوث والكشوف الأثرية التي تمت في هذا القرن ، وعنى غيره من معاصريه المشتغلين بالآثار كذلك بالتأريخ لبعض المدن المصرية القديمة أو الحديثة ، المندثرة أو الموجودة ، فأرخ أحمد كمال لمدينة منفيس ولمدينة عين شمس ، وأرخ على بهجت لمدينة الفسطاط في كتابه « حفريات الفسطاط » ، وكتب محمد مسعود تاريخاً صغيراً لمدينة الإسكندرية أسماه « المنحة الدهرية في تخطيط مدينة الإسكندرية » .

و - تاريخ مصر في القرن التاسع عشر والأسرة العلوية :

كذلك عنى المصريون بالتأريخ لمصر في القرن التاسع عشر ، وللأسرة الحاكمة وهي أسرة محمد علي ، فكتبوا الكتب الكثيرة في هذا الموضوع ، وتبدأ هذه السلسلة بكتابي الجبرتي « عجائب الآثار » و « مظهر التقديس » ، ثم يكتب بعده الشيخ خليل الرجبى أحد علماء الأزهر « تاريخ محمد علي » الذي لا يزال مخطوطاً ، ثم يكتب سليم النقاش كتاب « مصر للمصريين » في تسعة أجزاء ، يؤرخ في الثلاثة الأولى منها للأسرة العلوية من محمد علي إلى إسماعيل ، وقد ضاعت هذه الأجزاء ، ويؤرخ في الأجزاء الستة الأخيرة لمهد توفيق وللثورة العرابية ، ثم كتب

بعد ذلك محمد فريد « البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » ، والجزء الثاني من « تاريخ مصر الجديد » لجورجي زيدان ، يؤرخ لمصر في العصر الحديث .

ز - كتب التراجم العامة :

ومن فنون التاريخ التي عالجها المصريون في القرن التاسع عشر فن التراجم بجميع أنواعه ، فقد ألفوا كتباً في التراجم العامة ، ترجموا فيها لمجموعة من الرجال القدامى أو المعاصرين ، ومن أمثلة هذا النوع كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » لرفيق العظم ، وكتاب « حماة الإسلام » لمصطفى نجيب ، وهذان يضمنان تراجم لأبطال الإسلام القدامى ؛ وكتاب « تراجم مشاهير الشرق » لجورجي زيدان ، وكتاب « نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر » لتوفيق إسكاروس ، وكتاب « تراجم أعيان القرن الثالث عشر الهجري » لأحمد تيمور (وهذان الأخيران من مؤلفي القرن العشرين) .

ح - السير :

وهناك مجموعة أخرى من الكتب يضم كل منها ترجمة واحدة أو سيرة لرجل واحد ، وهذه جميعاً تؤرخ لبعض البارزين من

المصريين في القرن التاسع عشر ، ومن أمثلتها سيرة رفاة المسماة « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » التي كتبها تلميذه صالح مجدى ، و « ترجمة حياة محمود باشا الفلكي » التي كتبها محمد مختار باشا وإسماعيل الفلكي باشا ، و « ترجمة حياة إسماعيل باشا الفلكي » لأحمد زكي باشا ، و « ترجمة تاريخ كلوت بك مؤسس المدارس الطبية » لمحمد لبيب ، و « ترجمة أبو السعود أفندى ، لولده محمد بك أنسى » .

ط - السير الشخصية :

ويضاف إلى هذه بعض السير الشخصية ، أى التي أرخ فيها أصحابها لأنفسهم ، وخير أمثلة لهذه سيرة على مبارك التي أرخ فيها حياته وضمنها كتابه الخلط التوفيقية عند كلامه عن مدينة برنال ، والسيرة التي كتبها محمد عمر التونسى لنفسه في كتابه « تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » ، والسيرة التي كتبها عبدالله النديم لنفسه في كتابه « كان ويكون » .

ى - الفقه التاريخي :

وهناك أخيراً فن من فنون الكتابة التاريخية عرفته مصر لأول مرة في أواخر القرن التاسع عشر ، وهو فن « القصة التاريخية » وصاحب الفضل الأول في اقتحام هذا الميدان هو

« جورجى زيدان » الذى كتب ١٨ قصة حاول فيها أن يروى قصة الإسلام والمسلمين منذ عصر الرسول إلى القرن التاسع عشر ، حقيقة لقد سبق محمد المولىحى غيره فى محاولة كتابة القصة الأدبية حين كتب « عيسى بن هشام » ، ولكن جورجى زيدان كان أول من كتب القصة التاريخية ، وقد نما هذا الفن فى القرن العشرين وبرز فيه عدد من المصريين الذين كتبوا القصة التاريخية من أمثال محمد فريد أبو حديد ، ونجيب محفوظ ، وعلى أحمد باكثير ، ومحمد سعيد العريان .

ك - التأليف فى التاريخ بلغات أجنبية :

ظاهرة أخيرة تمتاز بها حركة التأليف التاريخى فى مصر فى القرن التاسع عشر ، وهى إقبال عدد من المشتغلين بالتاريخ فى مصر على كتابة مؤلفاتهم ومقالاتهم بلغات أجنبية ، وباللغة الفرنسية بوجه خاص ، وهذه ظاهرة لا نجد لها مثيلاً عند المؤرخين فى مصر الإسلامية قبل القرن التاسع عشر ، لقد كان بعض هؤلاء المؤرخين ورجال الفكر من المصريين يعرف بعض اللغات الأجنبية بل ويتقنها وخاصة اللغتين الفارسية والتركية ، فمن بين المؤرخين كان ابن دقماق والعينى وابن تفرى بردى وابن إياس يعرفون اللغة التركية ، ومن بين رجال الفكر كان الشيخ حسن الجبرتى يتقن اللغتين الفارسية والتركية ، وكان المرتضى الزبيدى يتقن الفارسية

والتركية والكرجية ، ولكننا لا نعرف أن واحداً من هؤلاء
أو غيرهم ألف بغير اللغة العربية ، وذلك لأن اللغة العربية كانت
هي لغة العلم في الشرق الإسلامي في العصور الوسطى .

وإذا كان بعض المشتغلين بالتاريخ في مصر في القرن
التاسع عشر قد كتبوا باللغة الفرنسية فذلك لأن هذه اللغة كانت
قد أصبحت لغة العلم ولغة السياسة في العالم المتحضر ، وهؤلاء
الذين كتبوا بها من المصريين كانوا من خريجي البعثات الذين
درسوا في فرنسا ، أو ممن درسوا اللغة الفرنسية في
مدرسة الألسن .

وفي مقدمتهم يعقوب أرنين وهو أرمني الأصل ، أرسل في
بعثة إلى أوروبا في عصر محمد علي لدراسة الإدارة الملكية ،
وقد ثقف يعقوب ثقافة أوروبية ، وولى وظائف كثيرة ، فكان
مؤدباً لبعض أنجال الخديو إسماعيل في سنة ١٨٧٣ ، وكاتماً
أوروبياً للأسرار في المعية في سنة ١٨٧٩ ، ووكيلاً لديوان المدارس
منذ سنة ١٨٨٤^(١) ، وكان من المشتغلين بالعلم المعنيين بالتاريخ
بوجه خاص ، وله كتب وأبحاث كثيرة كتبها باللغة الفرنسية ،
فن كتبه :

نه (١) أحمد عزت عبدالكريم : تاريخ التعليم في مصر - عصر إسماعيل - ،
ص ١٠ ، ٨٩ ، ١٢٠ ، ١٨٤ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٨٧٤ .

— *L'Instruction Publique en Egypte, Paris 1890.*
 وقد ترجمه على بهجت إلى اللغة العربية بعنوان : « التعليم العام في مصر » وطبع في بولاق سنة ١٨٩٤ .
 وكتاب :

— *La Propriété Foncière en Egypte, Le Caire 1883.*
 وقد ترجمه إلى العربية سعيد عمون بعنوان : « الأحكام المرعية في شأن الأراضي المصرية » ، وطبع في بولاق سنة ١٣٠٧ هـ .
 وكتاب :

— *Considerations sur L'Instruction Publique en Egypte. Le Caire 1894.*

وله عدا هذه الكتب عدد كبير من المقالات التاريخية نشرها في مجلة المعهد المصري

« Bulletin de L'Institut Egyptien »^(١)

ومن كتب باللغة الفرنسية أيضاً محمود الفلكي ،
 ومن كتبه :

1— *Memoires sur Le Calendrier Arabe avant L'Islamisme, sur La Naissance et L'age du Prophet Mohammed. Journal Asiatique 1858.*

(١) انظر على سبيل المثال :

Artin (Yacoub) :

- = *Description de Six Lampes de mosquées en Verre Emaillé, dans (Le Bulletin de L'Inst. Egypt. année 1886).*
- = *Trois Differentes Armoires de Kaït Bey. dans (Le Bulletin de L'Inst. Egypt. 1888).*

وقد نشر هذا البحث أولاً في المجلة الأسيوية ثم طبع على حدة ، وترجم إلى العربية تحت عنوان : « نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام وتحقق مولد النبي وعمره عليه الصلاة والسلام » ، ترجمه أحمد زكي أفندي (مترجم محافظة الإسماعيلية) وطبع في بولاق سنة ١٣٠٥ هـ .

2— *Memoire sur L'antique Alexandrie. Copenhagen 1872.*

ولمحمود الفلكي مقالات كثيرة أخرى نشرت بالفرنسية في المجلات العلمية في مصر وفي أوروبا مثل : مجلة المعهد المصري ، ومجلة الجمعية الجغرافية ، والمجلة الأسيوية ، ونشرات الأكاديمية الملكية البلجيكية . الخ . الخ .

ومن المقالات التي نشرها في النشرات البلجيكية سنة ١٨٨٥ ، مقال عنوانه :

"L'Age et Le But des Pyramides Lus dans Sirius"

« عمر الأهرام والغرض من بنائها » .

ومن هؤلاء قدرى باشا ، وله كتاب :

Cadri Pacha

= *Notices Géographiques, Le Caire 1869.*

ومنهم على بهجت ، وله بالفرنسية كتاب :

= *Les Fouilles d'El Fustat"*

وقد ترجمه إلى اللغة العربية بالاشتراك مع محمود عكوش

بعنوان : -

« حفريات القسطنطينية » .

وله عدا هذا الكتاب مقالات تاريخية وأثرية كثيرة نشرها في مجلة المعهد المصري^(١).

ومنهم محمد مختار باشا، وقد ولى إدارة هرر وقتاً ما عندما كانت خاضعة لحكم مصر، ومقالاته وأبحاثه عن هرر تعتبر حتى اليوم من أهم المراجع لدراسة هذه البلاد، وقد نشر هذه الأبحاث والمقالات في مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية، ومن أهمها :

Mohamed Mouktar

= *Notes sur Les Pays de Harar (Bulletin de La Société Khédiviale de Geographie du Caire 1876).*

ومنهم أحمد كمال باشا وله عدا كتبه العربية مقالات فرنسية كثيرة نشرها في مجلة المعهد المصري .

(١) انظر على سبيل المثال :

Aly Bahgat.

= *Les Forêts en Egypte et Leur Administration au moyen-âge (Bulletin de L'Inst. Egypt, 1900).*

= *Acte de Mariage du General Abdalla menou avec La Dame Zobeldah, (Bulletin. Inst. Egypt. 1898).*

= *La Famille Nusulmane du General Abdalla Menou. (B. Inst. Egypt, 1900).*

= *Un Etude Archéologique (Mémoires Institut Egyptien, tome VIII).*

= *Un Décret. du Sultan Khoshqsdam, (B. Inst. Eg. 5 th Series, V, 30-5).*

ومنهم أحمد شفيق باشا ، وقد كتب بالفرنسية كتاب :

L'Esclavage dans L'Islam

وقد ترجمه إلى العربية أحمد زكي باشا بعنوان : « الرق في الإسلام ، بولاق ١٣٠٩ » ، وأضاف إليه تعليقات تاريخية هامة .

وهكذا لم يعد البحث التاريخي على الأسس العلمية الحديثة مقصوراً على الأوربيين والمستشرقين ، بل بدأ المصريون يدلون بدلانهم في هذا الميدان ، وأخذوا يؤلفون باللغة الفرنسية ، ويكتبون بها مقالات وأبحاثاً جديدة قيّمة تنشر في المجلات التاريخية العلمية في مصر والخارج ، وعلى صفحات هذه المجلات تبدأ تظهر أسماء محمود الفلكي ، وإسماعيل الفلكي ، ومحمد مختار ، ويعقوب أرئين ، وأحمد كمال ، وعلى بهجت إلى جانب أسماء كازانوقا ، وهرتس ، ومرسيت ، وبروكش وغيرهم .

٥ - المنهج والطريقة والأسلوب

عند مؤرخي مصر في القرن التاسع عشر

واختلفت كتابات المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر عن كتابات سابقهم من مؤرخي العصر الإسلامي الوسيط اختلافاً واضحاً في المنهج والطريقة والأسلوب ، فقد كان مؤرخو العصر الوسيط يعتمدون على النقل ، والنقل الحرفي في معظم الأحيان

وخاصة عندما يؤرخون للعصور السابقة ، والجديد في كتبهم هو الأجزاء التي يؤرخون فيها لمصرهم ، وقليل منهم من كان ينقد أو يحلل أو يقارن أو يجرؤ على إبداء رأيه .

ومعظم هؤلاء المؤرخين كانوا يتبعون طريقة الحوليات ، فيؤرخون لمصر أو للعالم الإسلامي سنة سنة ، فكان القارئ لكتبهم يجد المعلومات التي بين يديه مجزأة منفصلة تنقصها وحدة الموضوع ، وقليل منهم كذلك من حاول التأريخ للموضوعات أو للدول كما فعل ابن خلدون في تاريخه .

أما المؤرخون المصريون في القرن التاسع عشر فقد تأثروا بالمنهج العلمي الحديث الذي لاحظوه فيما قرأوا أو درسوا أو ترجموا من كتب التاريخ الأوربية ، لهذا نجدهم يهتمون بطريقة الحوليات ، ويقسمون كتبهم التاريخية إلى موضوعات أو عصور أو دول ، فيؤرخون لكل عصر أو لكل دولة في فصل مستقل ، يظهر هذا واضحاً في كتاب رفاعه « أنوار توفيق الجليل » وفي كتب شارو بيم ، ومحمود فهمي ، وسرهنك ، وجورجي زيدان . . . الخ .

كذلك بدأ مؤرخو هذا العصر يحاولون فيما يكتبون أن ينقدوا وأن يحللوها وأن يقارنوا وأن يصدروا الأحكام ، وبعدها بذلك بعداً كبيراً عن طريقة النقل الحزفي التي كان يلتزمها سابقوهم .

ومن النواحي الهامة التي تأثر بها المؤرخون المصريون في هذا القرن في منهجهم وطريقتهم العلمية استعمالهم للعلوم المساعدة لتفسير التاريخ وفهمه ، مثل الوثائق والنمات والآثار والنقوش والكشوف الجغرافية . . الخ . الخ .

وهذه أمور قلَّ أن استعملها من سبقهم من المؤرخين ، حقيقة لقد أفاد بعض مؤرخي مصر الإسلامية من النقوش والوثائق مثل المقرئ في كتابه الخطط ، أو القلقشندي في صبح الأعشى ، ولكن مؤرخي مصر في هذا القرن خطوا خطوات جديدة في هذا الميدان ، فنجد الجبرتي يضمن كتابه « عجائب الآثار » كثيراً من الوثائق الصادرة عن حكام من الفرنسيين أو المماليك أو الأتراك ، كما يصرح في مقدمة كتابه أنه رجع إلى كثير من النقوش المرقومة على شواهد القبور ، وإلى سجلات الكتبة والمباشرين ، وكذلك فعل على مبارك في كتابه الخطط ، ونجد سلماً النقاش يضمن كتابه « مصر للمصريين » مجموعة ضخمة من الوثائق المتصلة بالثورة العرابية ، وينقل فيه صورة كاملة لمحاكمات العرابيين ، ونجد مؤلفاً آخر مثل فيليب جلاد^(١) يجمع مجموعة

(١) فيليب جلاد (١٨٥٧ - ١٩١٤) سوري الأصل ، ولد ببيافا ، تلقى علومه في مدرسة الآباء اليسوعيين ، وفتح في اللغة الفرنسية ، ثم رحل إلى مصر واستوطنها وتولى كثيراً من الوظائف الحكومية إلى أن عين محامياً بقلم قضايا الحكومة المصرية بالإسكندرية ، وكتابه يقع في ٦ أجزاء ، وطبع في مطبعة لإغوداكي بالإسكندرية طبعة أولى سنة ١٨٩٢ ، وطبعة ثانية سنة ١٩٠٠ - سنة ١٩٠١ .

كبيرة من القوانين واللوائح والفرمانات والمعاهدات الرسمية الصادرة عن الحكومة منذ سنة ١٨٤٠ إلى أواخر القرن التاسع عشر ويصدرها في كتاب أسماه « قاموس الإدارة والقضاء » .

وكان أول من عنى بالوثائق (باعتبارها مرجعاً من أهم المراجع لدراسة التاريخ) من مؤرخي مصر في القرن العشرين أمين سامي باشا في كتابيه « تاريخ التعليم في مصر » و « تقويم النيل » .

أما النميات فقد أفرد لها على مبارك جزءاً خاصاً من أجزاء كتابه « انخطط التوفيقية » ، وأما الآثار والكشوف الجغرافية فقد أفاد منها كثيرون من مؤرخي مصر ، وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والأمثلة كثيرة تجدها واضحة في كتب رفاة وعلى مبارك وأحمد كمال وعلى بهجت .. وغيرهم .

أما الأسلوب فقد تغير تغيراً تدريجياً ، فمؤرخو هذا القرن التزموا في أوله أسلوب سابقهم فكانوا يختارون لكتبهم عناوين مسجوعة ، وكانوا يلتزمون السجع أحياناً في كتابتهم ، ويكتبون بأسلوب سهل مرسل أحياناً أخرى ، وخير مثال لهذا التذبذب رفاة ، فهو في الجزء الأول من تاريخه المسمى « أنوار توفيق الجليل » يلتزم السجع إلى حد كبير ، ولكنه في الجزء الثاني الذي أرخ فيه للرسول ترك السجع وانطلق يكتب بأسلوب سهل مرسل ، ولم يكده يشرف القرن التاسع عشر

على نهائيه حتى وجدنا المؤرخين المصريين - والكتاب بوجه عام - يتركون هذه المحسنات البديعية ، ويكتبون بأسلوب سهل جميل خال تماماً مما كان يعيب أساليب العصر العثماني المتأخر من ركافة أو عجمة ، والفرق واضح جلي بين أسلوب الجبرتي أو رفاة ، وأسلوب عبد الله النديم أو محمد عبده .

والموضوعات التي تناولها مؤرخو القرن التاسع عشر تختلف عن الموضوعات التي كان يتناولها المؤرخون السابقون اختلافاً كبيراً ، فمعظم مؤرخي مصر الإسلامية عنوا بالتاريخ السياسي عناية كبرى ، وقل أن نجد من بينهم من أرخ للنواحي الثقافية أو الحضارية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظم الحكم ، أما مؤرخو القرن التاسع عشر فقد ألفوا في التاريخ السياسي ، وألفوا في تاريخ العالم ، كما ألفوا في نظم الأراضي ونظم التعليم ، وفي نظم الحكم في عهد الرسول ، وفي الرق في الإسلام ، وفي تاريخ التمدن الإسلامي ، وفي مشاكل المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ، وفي الثورة العرابية . . الخ . الخ .

٦ - حركة التأليف التاريخي في القرن التاسع عشر وأثرها في المجتمع المصري

بدأت العناية بالتاريخ في القرن التاسع عشر بالكتب التاريخية التي ترجمت إلى اللغة التركية بأمر محمد علي وابنه

إبراهيم ، وكان أثر هذه الكتب محدوداً ، فلم يقد منها — كما سبق أن ذكرنا — غير الوالى وابنه وبعض كبار رجال الدولة ممن يعرفون اللغة التركية .

ثم ترجم في مدارس محمد على عدد ضخم من الكتب ، كانت في معظمها كتباً حربية أو علمية أو طبية ، وهذه كانت محدودة الأثر أيضاً ، فلم يقد منها إلا تلاميذ هذه المدارس ، أما الكتب المتصلة بالعلوم الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وفلسفة ومنطق التي ترجمها رفاة وتلاميذه في مدرسة الألسن فقد كانت أقوى أثراً في المجتمع المصرى وفي القراء المثقفين من خريجي المدارس الحديثة ومن رجال الأزهر على السواء ، ولقد حاول الشيخ محمد عبده أن يقلل من أثر هذه الكتب التي ترجمت في عصر محمد على فقال إن أثرها لم يتعد جدران المدارس وأن معظم هذه الكتب كان يودع بعد طبعه في المخازن ، إلى أن بيع بعد ذلك للوراقين ، قال في مقال له بعنوان « آثار محمد على في مصر » نشر في « مجلة المنار »^(١) سنة ١٩٠٢ بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تولى محمد على حكم مصر : « وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ،

(١) مجلة المنار ، المجلد الخامس ، الجزء الخامس ، ١٩٠٢ ، وطبع هذا المقال ثانية في الجزء الثاني من « تاريخ الأستاذ الإمام » لرشيد رضا .

ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت ، وأغنت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا ، فأرادت الحكومة تفرغ المخازن منها ، وتخفيف ثقله عنها ، فنثرتها بين الناس ، فتناول منها من تناول ، وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد ، ولكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون . . الخ » .

ولكننا نرى أن محمد عبده كان مغالياً في حكمه هذا ، وأن هذا الحكم إن صدق على الكتب الحربية والعلمية فإنه لا يصدق على الكتب التي ترجمت في الألسن ، فقد ظل المثقفون من المصريين يقبلون على قراءتها طوال القرن التاسع عشر وشطراً من القرن العشرين ، والشواهد على هذا كثيرة ، فقد كانت ترجمة رفاعة لجغرافية ملطبرون Malte Brun ضمن الكتب التي طلبها عبد الله النديم ليقراها في مخبئه ، وكتب الشيخ مصطفى عبد الرازق - وهو تلميذ محمد عبده - في أول القرن العشرين مقالا ينقد فيه ترجمة الدكتور طه حسين والأستاذ محمد رمضان لكتاب الواجب لجول سيمون ، وأشار في هذا المقال إلى أنه قرأ الكتب التي ترجمها رفاعة وأفاد منها ، قال عند كلامه عن طريقة الترجمة الحرفية : « وأذكر أنني في ما وقع إلي من معربات الأستاذ رفاعة بك رافع وجدت دقة في تطبيق هذه القاعدة

تدل على ما كان في طريقة الأستاذ من ففحات العلم الحديث « (١) .

أما الكتب المؤلفة فقد كان أثرها في المجتمع المصرى قوياً واضحاً ، وأوضح ما يكون هذا الأثر في ناحيتين :

— خلق الحاسة التاريخية ودفع المصريين للعناية بالتاريخ كعلم بوجه عام ، وبتاريخ مصر في عصورها المختلفة بوجه خاص .

— تنفيذ الروح القومية .

وقد ساعد على تحقيق هذين الأثرين عوامل كثيرة شرحناها بالتفصيل في الفصول السابقة ، وأهمها في رأينا الفهم الجديد لتاريخ مصر القديم ، وللحضارة المصرية باعتبارها وحدة متصلة كانت تشع من أضوائها على شعوب العالم جميعاً ، والاعتداد بأجداد هذا التاريخ وهذه الحضارة ، ثم العناية بالآثار والتنقيب عنها وحفظها وصيانتها باعتبارها نماذج لهذه الحضارة المصرية في عصورها المختلفة .

وقد بدأ هذا الفهم — كما أسلفنا القول — رفاعة الطهطاوى ، ثم ردد أقواله ومفاهيمه غالبية المؤرخين والكتاب الذين أتوا بعده .

(١) مقال نشر في الجريدة ، الأربعاء ٢٩ يوليو ١٩١٤ ، ونشر ثانية في كتاب (من آثار مصطفى عبد الرازق ، نشر على عبد الرازق ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٤٦) .

وكان لكتب التراجم التي ألفت في القرن التاسع عشر أثرها القوي؛ كذلك، فؤلفوها لم يترجموا لطبقات معينة من الناس كالأطباء أو النحاة أو الفقهاء، ولم يترجموا لرجال قرن برمته كما كان يفعل مؤلفو كتب التراجم في العصر الإسلامي، وإنما كان كل واحد منهم يتخير مجموعة بعينها من الأبطال والعظماء فيترجم لهم مبيناً نواحي البطولة في حياته وأعماله، هكذا فعل رفيق العظم في « أشهر مشاهير الإسلام »، ومصطفى نجيب في « حماة الإسلام »، وجورجي زيدان في « تراجم مشاهير الشرق »، فكل شخصية ترجم لها في هذه الكتب كانت توحى دون شك - إلى الشبان المصريين بمعاني البطولة، وتضع أمام أعينهم نماذج من العظماء الذين آمنوا بالمثل العليا والفداء والتضحية. وكتب التراجم الفردية لا تنقل أهمية عن كتب التراجم العامة، فتراجم رفاة، وعلى مبارك، وأبو السعود، ومحمود الفلكي وغيرهم كلها تؤرخ لمصريين عصاميين نشأوا في قلب الريف المصري، واستطاعوا عن طريق العلم وبجدهم واجتهادهم أن يصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة، وأن يؤدوا لوطنهم خدمات كثيرة جليلة.

والتأريخ لحركة البعث القومي وللمقاومة الشعبية للاحتلال الأجنبي التي تبدو واضحة في ما كتبه الجبرتي في كتابيه التاريخيين، والتأريخ للثورة العرابية وبواعثها وأهدافها في كتاب « مصر للمصريين »، وفي كتابات ومذكرات قادة الثورة، كل هذا كان

له أثره الواضح القوي في إشعال الحركات الوطنية وتقوية الروح القومية بين المصريين في القرن العشرين ، ولا يستطيع أحد أن ينكر تأثر حركة مصطفى كامل وحركة سعد زغلول بل وحركة جمال عبد الناصر بهذه العوامل جميعاً .

وساعدت حركة إحياء التراث القديم وطبع الكثير من الكتب التاريخية على تعريف المصريين بأجدادهم التاريخية في العصر الإسلامي ، فبدأوا يحسون بأنفسهم ويعملون على بث هذا الماضي المجيد .

ولكننا نأخذ على حركة التأليف التاريخي في القرن التاسع عشر أنها لم تقم على أكتاف مؤرخين محترفين أعدوا أنفسهم إعداداً كاملاً لدراسة التاريخ وتدريسه والتأليف فيه ، فنحن إذا استثنينا الجبرتي الذي ركز جهوده للتأليف في التاريخ ، أو رفاعه الذي أعد نفسه إعداداً ما للكتابة في التاريخ ، نجد أن بقية المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر كانوا من الهواة ، فهم أصلاً ذوي ثقافات متعددة مختلفة في القانون أو الهندسة أو الأدب أو الحرب أو العلوم الدينية ، ثم شغفوا حباً بالتاريخ فكتبوا فيه ، هذا الوضع سيتغير في القرن العشرين ، فترسل أول الأمر في العشر الثانية بعثات من خريجي مدرسة المعلمين ، إلى جامعات أوروبا للتخصص في دراسة التاريخ .

ثم تفتتح الجامعة المصرية الحكومية في سنة ١٩٢٥ ، وينشا
بها قسم خاص لدراسة التاريخ بجميع فروعہ ويقوم بالتدريس فيه
أول الأمر عدد من أساتذة التاريخ الأوربيين وعدد من مبعوثي
المعلمين العليا بعد عودتهم ، ثم ترسل بعثات أخرى من خريجي
هذه الجامعة ومن خريجي الجامعات المصرية الأخرى بعد إنشائها ،
وتنشأ بأقسام التاريخ في هذه الجامعات أقسام للدراسات العليا ،
وخريجو هذه الأقسام وأعضاء هذه البعثات هم الذين يشغلون الآن
كراسي التاريخ في الجامعات ، ولجهودهم وجهود تلاميذهم في
التأليف والترجمة والنشر طابع جديد خاص ، أيسر ما نقوله عنه
إنه طابع علمي رصين .

مجموع الرين السبال